أبو الطيب المتنبي *

للأستاذ محمد محيي الدين عبد المجيد

موضوعات هذا البحث

وبعد فلقد فكرت طويلاً فيما عسى أن يكون موضوع كلمتي التي أتشرف بالقائها بين يديكم من مناحي المتنبي ، وعرضت مسائل البحث على خاطري ، فكنت كلما فكرت في أمر وجدت له ما يبرر التوجه إليه ، ووجدت مع ذلك من الشبهات ما يذودني عنه ويقطعني عن الاسترسال فيه ، ولكني استطعت في آخر الأمر أن أقنع نفسي بأنني وافد الأزهر إليكم ، وبأن الأزهر هو المعهد الذي يقوم على حراسة الدين أصوله وفروعه وعلى حياطة العربية وآدابها ، وبأن بحث من يمثل الأزهر يجب أن يكون متصلاً بما يؤديه الأزهر للعالم من أمانة وما يضطلع به من أعباء ، فاستقام عندي بعد هذه المقدمات أن يدور بحثي حول « دين المتنبي وأخلاقه وتنبئه وموقفه من النحاة » ؛ وما كدت أنتهي من ذلك الأمر وأخلص من التفكير بهذه النتيجة حتى عرض لي أمر آخر ألقيت له بالي كله ، وذلك الأمر هو المقصود بهذا المهرجان : أهو تقريظ المتنبي والثناء عليه ، إما باطرائه وكيل المديح له إن حقاً وإن باطلاً ، وإما باثارة الجميل من أخباره وشعره والاعراض عما عسى أن يغض من شأنه ، أم هو بحث المتنبي من جميع وجوهه لوجه الحق من غير تعنت ولا تحيز ؟ ولم أزل أفكر وأقدر للأمر حتى أيقنت أن هذا الحفل الذي يجمع أقطاب الأدباء والعلماء من كل قطر لا يمكن أن يستوي عنده الأمران فان فرق ما بينهما أوضح من أن يدل عليه . وأي إنسان يستطيع أن ينسى الفرق بين حفل يجتمع لتكريم رجل وبين حفل يجتمع فيه صفوة الأدباء لدراسة رجل من رجال الأدب كان له أشياع وأعداء ، وكان أشياعه ينشرون ممادحه ويذيعون فضائله ويتأولون له ، وكان أعداؤه يملأون الأرض عجيجاً حوله ويرمونه بكل نقائص الانسانية وهم لا يتورعون عن الكذب فيما يحدثون به من أخبار . أليس من أول ما يلزم الباحثين أن يعرضوا مقالات أعدائه وشيعته جميعاً على موازين البحث الصحيحة ليخلصوا بنتيجة ترضي العقل وتسد حاجة التفكير غير مبالين أن تكون هذه النتيجة مما يتمدح به أو مما يعده الناس نقصاً ؟ فان أنا عرضت عليكم شيئاً من هذا فهذه معذرتي وهذا رأيي ، ولعلي لا أكون قد أبعدت أو جانبت الصواب فيما ذهبت إليه

دين المتنبي

أيها السادة ! لقد مني أبو الطيب المتنبي بصنفين من الناس كان لكل واحد منهما من الأثر في حياته وفي أخباره التي تتوارثها إلى اليوم أقبح الأثر ، ولولاهما لعاش الرجل عيشة هادئة ، ولولاهما لكانت صحيفته في تاريخ الشعر والشعراء غير الصحيفة التي نقرؤها اليوم ، ولولاهما لما وجد الباحث عنه هذا الغموض وهذا التناقض اللذين يعانيهما الآن . أما أحدهما فجماعة من ذوي المكانة بين الناس وأصحاب الجاه خافوه على أنفسهم ورهبوا أن تمتد مطامعه إلى مكانتهم وجاههم ، أو طمعوا منه في أن يتملقهم ويرائيهم فيرد حضرتهم كما كان غيره يردها وكما كان هو يرد حضرة غيرهم من الملوك والأمراء فلم ينالوا ذلك منه ، أو دفعت أبا الطيب نوازع نفسية فنال من أعراضهم فكانوا لأحد هذه الأسباب أولها كلها مجتمعة يحنقون عليه ويغضون من شأنه ، وكانوا مع ذلك يؤلبون عليه الشعراء والعلماء لينالوا منه ويؤذوه في نفسه وفي شعره . وكان أبو الطيب يخشاهم ويرهب سلطانهم ، بل لم يكن يخشاهم على نفسه فحسب ، وإنما خشيهم على بعض أصدقائه ومن يشفق عليه ، فقد حدث أبو اسحاق الصابئ قال : « راسلت أبا الطيب رحمه الله في أن يمدحني بقصيدتين وأعطيه خمسة آلاف درهم ووسطت بيني وبينه رجلاً من وجوه التجار ، فقال : (قل له والله ما رأيت بالعراق من يستحق المدح غيرك ، ولا أوجب عليّ في هذه البلاد أحد من الحق ما أوجبت ، وإن أنا مدحتك تنكر لك الوزير (يعني أبا محمد المهلبي) وتغير عليك لأنني لم أمدحه ، فان كنت لا تبالي هذه الحال فأنا أجيبك إلى ما التمست وما أريد منك مالاً ولا عن شعري عوضاً) ، فتنبهت على موضع الغلط ، وعلمت أنه نصح فلم أعاوده اهـ » . وأما الصنف الآخر فجماعة ممن كانوا يأملون أن تكون لهم المنزلة التي أدركها من الحظوة عند الملوك ، وحرص كل واحد منهم أن يكون أبو الطيب من بطانته وتنافسهم في ذلك ، فلما لم يبلغ هؤلاء المؤملون هذه الأمنية

(*) وهي الخطبة التي ألقاها الأستاذ في مهرجان المتنبي في المجمع العلمي العربي بدمشق بقسم الأزهر

أكل الحقد عليه قلوبهم ، واشتعلت جذوة الحسد بين جوانحهم ، فتفننوا فى القول عليه والدس له ، ونشروا عنه من المقابح ما لم يكن يعلم من أمره أكثره شيئاً ؛ ولم يكتفوا بأن يعملوا على إبعاده عن الملوك الذين كان التقرب إليهم منتهى آمالهم ، بل حاولوا التفريق بينه وبين الجمهور ، فجاؤوه من ناحية الدين ثقة منهم أن للدين فى نظر جمهرة الناس وعامتهم المنزلة الأولى ، فاذا أتى الرجل من جهته فقط سقط وإن بقى له كل شىء

رموه بأنه كان رقيق الدين تاركا لأركان الاسلام ، ورموه بأنه كان يستخف بالأنبياء ويستصغر شأنهم ، ورموه بأنه ذهب فى الفلسفة مذهباً بعيداً عما يعتقده المسلمون ؛ وقد نسوا حين رموا أبا الطيب بذلك كله أن دين الاسلام شديد الصرامة فى حكم هذه المسألة ، وأنه لا يحل لمن يعتنقه أن يرمى أخاه بأمثال هذه التهم لأرضاء حفيظة نفسه حتى يكون بين يديه دليل لا يقبل التأويل

ولسنا حين نتشكك فى أخبار هؤلاء الناس أو ننكر استنتاجهم ندعى لأبى الطيب أنه كان رجلاً صالحاً ورعاً يقوم الليل ويصوم النهار ويطيل العبادة وقراءة القرآن ، ولكنا نفعل ذلك لنقرر أن حياة أبى الطيب قد أحاطها أعداؤه بكثير من الغموض وأحاطوها مع هذا الغموض بكثير من الأكاذيب والمفتريات كان من شأنها أن تريك حياته سلسلة من المتناقضات

حكى على بن حمزة البصرى قال : « بلوت من أبى الطيب ثلاث خلال محمودة : وتلك أنه ما كذب ولا زنى ولا لاط ، وبلوت منه ثلاث خصال ذميمة : وتلك أنه ما صام ولا صلى ولا قرأ القرآن » وهذا خبر لم يذكر قائله معه رجحا يقربه من الصدق . وهل يستطيع إنسان فى الدنيا أن ينفى عن آخر فعل شىء حتى يزعم أنه لزمه طول حياته فلم يفارقه وأنه ما رآه يفعله قط ؟ ثم إن أمر الصوم فى حديث على بن أبى حمزة أهون من أمر الصلاة وقراءة القرآن ، فهو يستطيع أن يدعى مرة أخرى أنه رأى أبا الطيب كل عام فى شهر رمضان فى حلب ومصر والعراق وشيراز وسائر البلاد التى وطئتها قدما أبى الطيب ، وأنه رآه مع ذلك يأكل أو يشرب نهاراً ، يستطيع أن يدعى هذا كله وحينئذ يتم له ما أراد من أنه بلا من أبى الطيب خلة ذميمة وهى أنه ما صام ، ولكن أنى له أن يدعى ذلك . فأما أمر الصلاة وقراءة القرآن فنحن نسائله : أكان قد لزم أبا الطيب فى مغداه ومراحه ومتيقظه ومنامه حتى يستطيع أن يزعم أنه ما صلى ؟ وشىء آخر ، ذلك أنه بلا منه خلة محمودة وهى أنه ما كذب ، فهل سأله عن صلاته وقراءته القرآن فحدثه وصدقه الحديث أنه ما صلى ولا قرأ القرآن ؟ والحق أن على بن حمزة البصرى رجل أراد أن يرمى أبا الطيب بما رمى به أمثاله أمثال أبى الطيب من قبل ، وبما لا يزال أمثاله يرمون به أمثال أبى الطيب إلى اليوم . يريد بذلك أن يرضى خصوم أبى الطيب أو يشبع شهوة الانتقام منه ، وأراد أن يعمى على الناس ويحملهم على تصديقه ، فذكر فى صدر حديثه أنه بلا منه ثلاث خلال محمودة ، وهذه العبارة فيما نعلم من أمر الناس احدى الدلائل على اختلاق الحديث . هذا وقد ذكر أبو العلاء فى شأن صلاة أبى الطيب قال : « وحدثت أن أبا الطيب أيام كان اقطاعه بصف رؤى يصلى بموضع بعمرة النعمان يقال له كنيسة الأعراب ، وأنه صلى العصر ركعتين ، فيجوز أن يكون رأى أنه على سفر وأن القصر له جائز » فهل يمكن أن يكون خبر على بن حمزة بعد ذلك موثوقا به ؟ فأما تأول المتنبى وأنه رأى أن القصر له جائز فأمر آخر ليس بحثه من شأننا الآن ؛ وقراءة القرآن التى زعم على بن حمزة أن أبا الطيب لم يفعلها ، أفى الناس من يعقل أن رجلا نشأ على حفظ اللغة واستظهار غريبها ، والتنقل فى البوادى ليلقطها من أفواه الأعراب يجد القرآن بين يديه وهو كتاب لغة وأسلوب وفكر ، فوق أنه كتاب هداية وخلق وآداب ، ثم لا يقرأه ليتأسى به ويتقيل أساليبه ويتخذ من اطراد منطقه وإحكام الحجة فيه منهجاً لنفسه ؟ ونحن نذكر لعلى بن حمزة أن أبا الطيب قد قرأ القرآن وفهمه ، ونذكر له مما يشير إلى ذلك قوله من قصيدة يمدح بها كافوراً :

كأن كل سؤال فى مسامعه قميص يوسف فى أجفان يعقوب

وقوله من قصيدة يمدح فيها محمد بن زريق الطرسوسى :

لو كان ذو القرنين أعمل رأيه لما أتى الظلمات صرن شموسا
أو كان لج البحر مثل يمينه ما انشق حتى جاز فيه موسى

فأما ما ذكروه من استخفافه بالأنبياء واستصغاره شأنهم وعدم مبالاته بأصول العقيدة ، فقد رأينا فيما جمعناه من كلام أبى الطيب مما هو متصل بهذه المسألة أن بعض ما ذكروه أهون من أن يؤبه له كقوله :

ما مقامى بأرض نخلة إلا كمقام المسيح بين اليهود

وكقوله :

إنا فى أمة تداركها اللـــه غريب كصالح فى ثمود

وأى شىء فى أن يشبه نفسه وهو يقيم بين قوم يعتقد أنهم أعداؤه بالمسيح عليه السلام حين أقام بين اليهود ؟ وأى شىء فى أن يدل على أن بقاءه بين قوم لا تجانس بينه وبينهم غربة تشبه غربة صالح عليه السلام ، إذ كان يعيش فى وسط لا يرون رأيه ؟ وبعض ما أخذوه عليه تجد له محملا فى الكلام لو أنت حملته عليه لم يكن به بأس ، وذلك كقوله فى قصيدة مدح بها الحسين ابن اسحاق التنوخى :

فما ترزق الأقدار من أنت حارم وما تحرم الأقدار من أنت رازق

فانه يمكن أن يكون قد أراد أن الحسين بن اسحاق رجل موفق إلى السداد وإصابة المقادير فهى تجرى دائماً موافقة لما اهتدى إليه ولا شىء فى ذلك فيما نظن . وأما بقية ما أخذوه عليه فداخل فى باب المبالغة التى تجرى على ألسنة الشعراء وهى لم تخالط قلوبهم ، وأبو الطيب كثير المبالغة فى شعره ، ونحن نأخذها عليه من الناحية الأدبية ولا نستدل بها على فساد عقيدته ؛ فمن ذلك قوله فى مدح محمد بن زريق :

لو كان للنيران ضوء جبينـه عبدت فصار العالمون مجوسا

ومن ذلك قوله من قصيدة يقولها فى صباه :

عمرك الله هل رأيت بدوراً طلعت فى براقع وعقود

راميات بأسهم ريشها الهد ب تشق القلوب قبل الجلود

يترشفن من فمى رشفات هن فيه أحلى من التوحيد

وقد اعتذر الناس عن قوله : « هن فيه أحلى من التوحيد » بوجوه : أحدها قاله ابن جنى وملخصه إنكار هذه الرواية ، والرواية عنده « هن فيه حلاوة التوحيد » وقد سرى إلى ابن جنى داء النحاة فى تحريف الشواهد وتغييرها على ما يوافقهم . والوجه الثانى : « تفسير التوحيد بأنه ثمر من ثمار العراق حلو المذاق ، والوجه الثالث قاله العكبرى وملخصه أنه ليس المراد تفضيل حلاوة الرشفات على حلاوة التوحيد ، وإنما المراد تقريب حلاوتها من حلاوته لأن حلاوته ثابتة غير مشكوك فيها وحلاوتها غير معروفة ، وذانك الوجهان من باب التمحلات البعيدة كما ترون ، وليس لنا إلا أن نعترف بأن هذا غلو أفرط فيه أبو الطيب فتجاوز الحد . ومن ذلك قوله من قصيدة مدح بها أبا شجاع عضد الدولة

الناس كالعابدين آلهة وعبـــده كالموحد الله

وقوله من قصيدة مدح بها بدر بن عمار :

لو كان علمك بالآله مقسما فى الناس ما بعث الآله رسولاً

لو كان لفظك فيهم ما أنزل الـــقرآن والتوراة والانجيلا

وكل هذا من الغلو البعيد كما قدمنا ، ونحن نعتب عليه أنه قد أسلس العنان لفكره حتى جال فى هذا الميدان ، فلا بدع أن يتلى من غباره وتصيبه إحدى قذائفه

فأما ما اتهموه به من الذهاب فى فلسفته مذهباً لا يقره الاسلام فأنى أبادر بانكار ذلك عليهم وأعرض عليكم شيئاً مما ذكروه لتتبينوا بأنفسكم أنهم لم يكونوا منصفين حين نسبوه إلى ما نسبوه إليه ؛ زعموا أنه أنكر المعاد لقوله :

تمتع من سهاد أو رقاد ولا تأمل كرى تحت الرجام

فان لثالث الحالين معنى سوى معنى انتباهك والمنام

وأى دليل فى هذا الكلام على انكار المعاد ؟ وأى شىء فى أن تقول : « إن للموت معنى غير معنى النوم واليقظة ؟ ومن ذا الذى يزعم أن معنى الموت هو معنى النوم واليقظة أو أن حال الانسان فيه كحاله فيهما » وزعموا أنه يرى رأى السوفسطائية الذين ينكرون ثبوت حقائق الأشياء لقوله :

هون على بصر ما شق منظره فانما يقظات العين كالحلم

ولو كان ذلك من مذهب السوفسطائية لما جاز لأحد أن يشبه شيئاً بضده إذا اشتركا فى أمر من الأمور ونحن ما نزال نسمع الناس يقولون إن نوم فلان ويقظته سواء إذا كان لا يستفاد من يقظته أو كان لا يجد الراحة فى نومه كما لا يجدها فى يقظته . وما نزال نسمعهم يشبهون الموجود بالمعدوم والنير بالمظلم . وهكذا يجرى على الألسنة من غير أن يلتفت أحد الى هذا الذى زعموه ونسبوه الى القول بقدم العالم مستنتجين ذلك من قوله فى قصيدة رثى فيها أخت سيف الدولة :

تخالف الناس حتى لا اتفاق لهم

إلا على شجب والخلف فى الشجب

فقيـــل تخلص نفس المرء سالمة

وقيل تشرك جسم المرء فى العطب

وهذا استنتاج لا يقضى العجب منه ، بل أنا أصارحكم — ولا ضير على فى ذلك — بأننى لم أعرف وجه هذا الاستنتاج ،